ابن الشبل البغداديّ : حياته وشعره

د. لطفي منصور

محمّد بن الحسين بن عبد الله أبو عليّ المعروف بابن الشبل أو الشبليّ الساميّ البغداديّ الحريمي[1]، الشاعر الطبيب الحكيم الذي لم يحظ بأيّ دراسة معمّقة توفيه حقّه وتعرّف به وبحكمته وأدبه وشعره قديمًا أو حديثًا . وبعد اطّلاعي على ما وصلنا من شعره وما تناثر من نتائف كتبت عنه في المصادر القديمة ، رأيت من الواجب أن أعرّف القارئ المعاصر بواحد من خيرة الشعراء البغداديّين في القرن الخامس الهجريّ .

لا نعرف كثيرًا عن حياة ابن الشبل ، فبالرغم من ورود اسمه في عدّة مصادر قديمة إلاّ أنّ المعلومات التي أعطيت عنه قليلة ونزرة . فقد كان طبيبًا بارعًا متميّزًا بالحكمة والفلسفة ، خصّص له ابن أبي أصيبعة عدّة صفحات قصرها على شعره ، عدا أسطر قليلة عرّف فيها بنسبه ووفاته[2]، ونفهم من الذهبيّ وياقوت الحمويّ أنّه كان راوية للحديث النبويّ ، فقد سمع غريب الحديث من أبي الحسن أحمد بن عليّ بن البادي وغيره ، وروى عنه إسماعيل بن السمرقنديّ وأبو الحسن بن عبد السلام وأبو سعد بن الزوزنيّ وشجاع الذهليّ وآخرون أخذ عن أبي نصر يحيى بن جرير التكريتيّ وغيره .[3] وذكر أبو الحسن الباخرزيّ أنّه رآه على الخدمة النظاميّة بهراة ، وقال : «واستفدت من محاضراته ما لم أجد عند غيره ذلك الصنف ، واقتبست من مذكّراته جملاً ملأت منها الكنف»[4]. أمّا وفاته ، فقد كانت على الأغلب في بغداد سنة ثلاث وسبعين وأربع مائة ،

وزاد الذهبيّ «في المحرّم وله اثنتان وسبعون سنة»[5].

والذي يهمّنا من ابن الشبل هو ما تركه من تراث شعريّ خالد . فقد أجمعت المصادر التي ترجمت له أنّ له ديوانًا شعريًا معروفًا وصفه الذهبيّ بالقول : «له ديوان مشهور ونظمه في الذروة»[6]. وقال عنه الصفديّ : «كان ظريفًا نديمًا مطبوعًا وشاعرًا مجيدًا»[7]. وزاد الباخرزيّ : كان الغالب عليه النثر ولرسائله عذوبة ، هي بين الكتّاب أعجوبة[8]. غير أنّ هذه الرسائل لم يصلنا منها شئ . أمّا عظمته الشعريّة ، فتكمن في قصيدتين مطوّلتين نالتا إعجاب معاصريه واللاحقين لهم وبهما – كما قيل – سارت الركبان وحظي بلقب «شاعر العصر»[9]، وكذلك بمقطعات شعريّة تعتبر من عيون الشعر .

إنّ القصيدة الأولى هي الأهمّ ، لأنّها من نوادر الشعر قالها في وصف الفلك الدائر ، والقصيدة الثانية في رثاء أخ له ضمّنها كثيرًا من الحكمة والفلسفة ، وسأعرض في هذه المقالة للقصيدتين محلّلاً لهما وموضّحًا لما استغلق فيهما ، على الأخصّ القصيدة الأولى ، وألمّ إلمامة أيضًا بمقطعاته الشعريّة لأشير لمواطن الإبداع والجمال فيها ولأردّ للشاعر العظيم بعض ما يستحقّ من ذكر واعتبار ، مقدّمًا ذلك كلّه زادًا فكريًا وأدبيًا للقارئ الكريم .

تعرف القصيدة الأولى بالرائيّة وهي منظومة على البحر الوافر ، وردت وافية عند ابن أبي أصيبعة وياقوت الحمويّ [10]. أمّا في سائر المصادر ، فقد وردت منها مقطّعات لا غير. وهذه القصيدة نسبت خطأ لابن سينا ، نظرًا لما تحويه من حكم فلسفيّة ، وقد دلّت على علوّ كعب ابن شبل في الحكمة والاطّلاع على مكنوناتها ، وتداولها الرواة .[11] تضمّ القصيدة خمسين بيتًا عند ابن أبي أصيبعة وتسعة وأربعين بيتًا عند ياقوت .

تثير هذه القصيدة كثيرًا من الجدل حول بعض المسائل في الحكمة والفلسفة التي

سادت في عصر المؤلّف ، وامتدّت جذورها إلى مطلع القرن الثاني الهجريّ . وأولى هذه المسائل هي مسألة الجبر والاختيار ، هل الخلق مسيّرون أم لهم حقّ الاختيار ، ويطول هذا أيضًا المخلوقات غير البشر ، وأوّلها الفلك الدائر وما يحويه الفضاء من شموس ونجوم ومجرّات . ففي مطلع القصيدة يستفهم الشاعر الفلك الدائر عن علّة دورانه ويقسم عليه بربّه مستفهمًا : أقَصْدٌ هذا الدوران واختيار أم جبر واضطرار. يقول :

بِرَبِّكَ أَيُّهَا الفَلَكُ المدَار * أَقَصْدٌ ذَا المَسِيرُ أَم اضطِرَارُ ؟؟
مدارك قل لنا في أيٍّ شئ * فَفِي أَفْهَامِنا مِنْك انبِهَار
وَفِيكَ نَرَى الفَضَاء وَهَل فَضَاء * سوًى هَذَا الفَضَاء بِهِ تُدَار

أصل الانبهار انقطاع نفَس الرجل من العجب أو الانفعال ، فالذي يتأمّل الفضاء الخارجيّ لا بدّ أنْ يقع في الحيرة والذهول كما هو الحال عند شاعرنا الذي يستنطق ما لا ينطق ، فتبقى الأفهام قاصرة عن إدراك الحقيقة الكونيّة . أبيات ثلاثة كلّ واحد منها يحتوي على استفهام يثير فضول الشاعر . المسألة الأولى تحدّثنا عنها وهي قضيّة عقليّة تتناول القدر والجبر وانقلبت إلى نزاع سياسيّ بين الأحزاب المتصارعة على كرسيّ الخلافة لا مكان هنا للتوسّع بها . والمسألة الثانية التي سبّبت الانبهار للشاعر هي مكان هذا الدوران أين بدؤه وأين نهايته ، ويمكن أن يكون مفهوم عبارة «في أيّ شئ» لأجل أيّ شئ ، غير أنّ الاستفهام الثالث يعزّز فكرة مكان الدوران ، لأنّ الشاعر يسأل : هل هناك فضاء غير هذا الفضاء الذي نشاهده تصله أيّها الفلك في دورانك وتجري فيه ؟

ثمّ ينتقل الشاعر إلى قضيّة تمسّ الإيمان وتثير التشكّك ، وهي مع غيرها من القضايا

التي تثيرها القصيدة كانت منفذاً للطاعنين عليه ، لأنّها تدلّ – حسب زعمهم – على فساد عقيدته[12]. تتناول هذه القضيّة الروح والجسد ، وهي مسألة تكاد أن تكون مشتركة عند جميع الأديان السماويّة ، يتساءل الشاعر :

وَعِندكَ ترفع الأرواحُ أم هل * مع الأجساد يدركها البوار ؟

إنّ عقيدة الشاعر بالبعث والنشور والثواب والعقاب غير راسخة بل متقلقلة ، فالإيمان يقضي بأنّ الأرواح تصعد إلى بارئها ليوم معلوم ، أمّا أن تهمد وتفنى مع الجسد ، فهذا من قول الدهريّين .

ويمعن شاعرنا نظره في المجرّة ويتساءل :

وَمَوْجُ ذِي المَجَرَّةُ أم فرند * على لجج الذراع لها مدار
وَفيك الشمس رافعة شعاعًا * بأجنحة قوادمها قصار

هذه المجرّة أموج مضطرب أم نصل سيف وهّاج اتّخذت من ذراع برج الأسد قطبًا لها تدور حوله ، بينما الشمس تنحو نهارًا على الفلك بأجنحة من الشعاع قصار كقوادم أجنحة الطائر . إنّ تشبيه أشعّة الشمس التي لا تطول الفلك جميعه بريش أجنحة الطائر الأماميّة المعروفة بقصرها ، مع ما فيه من جمال في التصوير اللغويّ ، يدلّ على خبرة الشاعر بصغر حجم شمسنا بالنسبة للكون جميعه الذي لا بداية له معروفة ولا نهاية .

ثمّ يرسم لنا الشاعر صورة جميلة للهلال الذي يعتنق النجوم ، فيكون لها طوقًا أو سوارًا يزيّن يدها الممتدّة داخل المجرّة .

وطوق للنجوم إذًا تبدّى * هلالك أم يد فيها سوار[13]

وشهب ذا الخواطف أم ذبال عليها المرخ يقدح والعفار

الشهب الخواطف هي النيازك التي تخرّ في السماء في اللّيالي المظلمة ، وجعلها القرآن رجومًا للشياطين الذين يسترقون السمع ليعرفوا أخبار السماء ، والذبال فتيل السراج، والمرخ والعفار نوعان من النبات الناعم سهل الاشتعال يورى بهما بالزناد ، فيشتعل الفتيل . هذا البيت غير موجود في رواية ياقوت ومثبت عند ابن أبي أصيبعة .

وأفلاذ نجومك أم حباب * تؤلّف بينه لجج غزار[14]

هذه النجوم أشذرات من الذهب اللامع أم حباب من الزبد تجمعه لجج من المياه الغزيرة ، فهي تنثر ليلاً في الفضاء وتزيّن سماء الدنيا ثمّ تطوى نهارًا كما يطوى الإزار . لكنّها لا تفنى ولا ينضو لها ضوء ولا يعتكر لها وميض ، بينما ترسل نصالها على البرايا ، فتخترم منها المهج ويصدأون بفعلها كما يصدأ الحديد . والشاعر بلا شكّ ممّن يؤمنون بفعل النجوم بالبشر وسلطانها عليهم .

فكم بصقالها صدئ البرايا * وما يصدا لها أبدًا غرار

ثمّ ينتقل الشاعر لذكر الكواكب السيّارة ، الجواري الخنّس ، التي تكنس في أوكارها كما يكنس القطيع من بقر الوحش ، فبينما هي تبدو متلألئة في السماء يعاجلها الرجوع ، فتبدأ العود في السما من الشرق ، ثمّ سرعان ما تنحدر غائبة نحو الغرب ، وهكذا دواليك ، وتمضي الأيّام وتطول وتطول الأمنيات وهي مستمرّة في حركتها الدائبة .

تبادي ثمّ تخنس راجعات * وتكنس مثلما كنس الصوار[15]

فبينا الشرق يقدمها صعودًا * تلقّاها من الغرب انحدار

على ذا قد مضى وعليه يمضي * طوال منًى وآجال قصار

ويأتي الشاعر على ذكر الدهر وأيّامه والدنيا وتخبّطها ببنيها ، ويكشف بوصف صادق عن النتائج الحتميّة لمعركة غير متكافئة بين البشر والدهر ، فهذه الأيّام لا تأبى إلاّ أن تضيق بنفوسنا ، فتزهقها . فانتثار الأجساد وفناؤها في الدنيا الجميلة يضاهيه تناثر أوراق الزهور والورود في الرياض الساحر :

وأيّام تعرّفنا مداها * لها أنفاسنا أبدًا شفار

ودهر ينثر الأعمار نثرًا * كما للورد في الروض انتثار

والدنيا وما تبديه من وداعة وجمال يغترّ بهما أبناء البشر ، فيستسلمون إليها ويغرقون في متعها ونعيمها ، فسرعان من تقلب لهم ظهر المجن ، وهم في قمّة التمسّك بأهدابها ، فتسلب منهم ما منحته لهم وتخبطهم خبط عشواء ، ومن يحاسب الدنيا على بطشها بالبشر ؟

ودنيا كلّما وضعت جنينًا * غذته من نَوائِبها ظؤارُ

هي العشواء ما خبطت هشيم * هي العجماء ما جرحت جُبار

إنّ مولود الدنيا يغذّى بلبن الظئر وهي المرضع لغير ولدها ، فتفقده الحنان وتسقيه رنقًا. شبّه الشاعر نوائب الدنيا ومصائبها بلبن الظئر ، وهذا من بديع الوصف ، كما وفّق الشاعر باستعمال ما الموصولة في البيت الثاني بالمكانين ، وهذا يدلّ على حسن نظمه واستقامته .

والبرايا تساق إلى يوم هوله شديد ، لأنّه لا أمس له ولا غد وروحه تنتشر في جسده يبثّها تردّد الشهيق والزفير . وبينما النفوس والأجساد يأنس بعضها ببعض ، وقد

ائتلفت في وحدة حياتيّة لا تنفصم ، فإذا بهذه النفوس تنفر من أجسادها طائرة غير مبالية بصحبة كانت قد قرّت بها عينًا .

وكم من بعد ما كانت نفوس * إلى أجسامها طارت وطاروا
ألم تك بالجوارح آنسات * فأعقب ذلك الأنسَ النفار

وقد استعمل الشاعر ضمير العقلاء في كلمة «طاروا» للأجسام ، لأنّه يعني بها الناس . وهذا الاستفهام التقريريّ يدلّ على حيرة الشاعر في علّة مفارقة الأرواح للأجساد بعد أن كانت آنسة بها .

ثمّ ينتقل الشاعر إلى آدم أبي البشر والشقاء الذي ألحقه ببنيه بعد اقترافه ذنبًا لم يكن له عذر فيه ، وقد أهبط وطرد من فردوسه ولم ينفعه جواره للّه وعلمه بالأسماء وظهوره على الملائكة وسجودهم له ، فأخرج من نعيمه وأصبحت السافيات له كفنًا وأدركته رحمة اللّه بأن ألهمه الاستغفار من ذنبه فغفر اللّه له ، لكن بالرغم من هذا الغفران بقي آدم يعيّر بجريرته ما أعقب الليلَ النهارُ .

فإن يك آدم أشقى بنيه * بذنب ما له منه اعتذار
ولم ينفعه بالأسماء علم * وما نفع السجود ولا الجوار
فأُخْرِجَ ثمّ أُهْبِطَ ثمّ أودَى * فتُرْبُ السافياتِ له شِعَار
فأدركه بعلم اللّه فيه * من الكلمات للذنب اغتفار
ولكن بعد غفران وعفو * يعيّر ما تلا ليلا نهار

مسكين أنت أيّها الإنسان لم يكف أن طردت من نعيمك حتّى سلّط عليك عدوّ يعرض لك بين قلبك ونفسك ، ويزيّن لك الشهوات وحلّ بك وببنيك الصغار والهوان وحقّق الشيطان ما كان يمنّي به نفسه بالإيقاع بك ، وبات الناس في تيه كقوم موسى الذين أضلّهم

السامريّ وخوار عجله ، لكين أين هو العجل اليوم ؟ وأين خواره ؟ والنّاس لا يزالون سكارى وما هم بسكارى .

لقد بلغ العدوّ بنا مناه * وحلّ بآدم وبنا الصغار
وتهنا ضائعين كقوم موسى * ولا عجل أضلّ ولا خوار

ثمّ ينحو الشاعر باللائمة على تلك الأكلة - أكلة آدم من الشجرة بعد أن أغواه الشيطان، فاستمع إليه وأعرض عن نداء ربّه له بالابتعاد عنها - التي جرّت النقم والويلات لآدم ونسله إلى يوم الدين ، حتّى بتنا نعاقب بها منذ وجودنا في أصلاب آبائنا وأرحام أمّهاتنا وتكون البلايا والرزايا بانتظارنا حال ولادتنا ، ثمّ ينتظرنا الوعيد يوم الدين ، ثمّ نخرج من هذه الدنيا على كره ، كما دخلناها على كره ، تمامًا كما يخرج الضبّ كارهًا من وجاره . ويتساءل الشاعر : ما هذا الامتنان علينا بوجود لم يكن لنا الخيار فيه ؟ ويضيف إنّه من الممكن أنْ يكون هذا الوجود خيرًا لو استشرنا مسبقًا أو خيّرنا ما بين الوجود وعدمه .

فيا لكِ أكلة ما زال منها * علينا نِقمة وعليه عار
نعاقب في الظهور وما ولدنا * ويذبح في حشا الأمّ الحوار
وننتظر البلايا والرزايا * وبعد فللوعيد لنا انتظار
ونخرج كارهين كما دخلنا * خروج الضبّ أخرجه الوجار
فماذا الامتنان على وجود * لغير الموجَدين به الخيار
وكان وجودنا خيرًا لَوَ انّا * نخيّر قبله أو نستشار

وقد عبّر الشاعر بشطر البيت «ويذبح في حشا الأمّ الحوار» عن المصير المحتوم الذي

كتب على الإنسان قبل ولادته ، حتى لم يبق له شئ من الخيار . والشاعر كما يظهر من الأبيات التي عرضناها يميل إلى الجبر بشكل واضح . ويصف الشاعر هذا المصير المبهم بالداء الذي لا دواء له وبالكسر الذي ليس له برء ، فقد تحيّر في فهمه كلُّ ذي فهم دقيق وتيقّن أنّ جرح البشريّة بمصيرها المجهول لا يسبر غوره :

أهذا الداء ليس له دواء * وهذا الكسر ليس له انجبار

تحيّر فيه كلّ دقيق فهم * وليس لعمق جرحهم انسبار

ثمّ ينتقل الشاعر إلى وصف قيام الساعة وأمارات ذلك ، وهو في وصفه يعتمد على ما صوّره القرآن من علامات الساعة وقرب القيامة : من تكوير للشمس وانتثار الكواكب وانفطار السماوات وذهول المراضع وتعطيل العشار وخسوف القمر وانقلاب الجبال إلى كثب مهيلة وتسجير البحار . هذه العلامات من شأنها أن تهتزّ لها الألباب ولا يثبت لها جنان ، وكيف يمكن الصبر على أنواع العذاب الذي ينتظر المنشورين . ثمّ يتساءل الشاعر أمام هذه الأهوال : أين عقول ذوي الأفهام ممّا يراد بالبشر في تلك الساعة ؟ وأين اعتبارهم واتّعاظهم في مثل تلك الحال ؟ عندما يفقد كلّ لبّه الذي كان يضئ حشايا نفسه وصدره ، عندما ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . يقول :

إذا التكوير غال الشمس عنّا * وغال كواكب الأفق انتثار

وبدّلنا بهذي الأرض أرضًا * وطوّح بالسماوات انفطار

وأذهلت المراضع عن بنيها * لدهشتها وعطّلت العشار

وغشّى البدر من فرق وذعر * خسوف ليس يجلى أو سرار

وسيّرت الجبال فكنّ كثبًا * مهيلات وسجّرت البحار

فأين ثبات ذي الألباب فينا * وأين مع الرجوم لنا اصطبار
وأين عقول ذي الأفهام ممّا * يراد بنا وأين الاعتبار
وأين يغيب لبّ كان فينا * ضياؤك من سناه مستعار

إنّ الصورة الشعريّة المذهلة التي يرسمها الشاعر في الأبيات الماضية ليوم القيامة وما يتبع ذلك من حساب وعقاب كأنّه يردّ بها على أولئك الفلاسفة الذين اتّخذوا العقل منارة لهم يسيرون على هديه ، ولا يولون الإيمان وما يعقده القلب من اعتقاد راسخ بحتميّة البعث والنشور أيّ أهمّيّة . وفي الأبيات الأخيرة من القصيدة يخصّصها الشاعر للقدرة الربّانيّة وخلق الله لهذا الكون وما فيه من سماوات وأرضين ، وكيف أنّ الأرض أتته طائعة وبسطها بعد أن كانت دخانًا ثمّ جعلها دارًا للأموات ، وما الأرض والسماء إلاّ طوع بنانه وما انكدار النجرم بسمائها إلاّ امتثال لأمر الخالق الذي لا نهاية لما سمك وسما ولا قرار لما أرسى ، وما علامات الساعة بأهوالها إلاّ موعظة وزجر لمن يخشى الله وأراد اعتبارًا . يقول :

ولا أرض عصته ولا سماء * ففيما يغول أنجمها انكدار
وقد وافته طائعة وكانت * دخانًا ما لقاتره شرار
قضاها سبعة والأرض مهدا * دحاها فهي للأموات دار
فما لسموّ ما أعلى انتهاء * وما لعلوّ ما أرسى قرار
ولكن كلّ ذا التهويل فيه * لمن يخشى اتّعاظ وازدجار

هكذا ينهي ابن شبل قصيدته في وصف الفلك وما تضمّنته من قضايا في الحكمة ومصير الإنسان وقضيّة الاختيار والجبر التي فاقت مضامين القصيدة الأخرى .

وأنتقل إلى قصيدته الثانية من شعر ابن شبل وهي في رثاء أخيه أحمد ، وما تضمّنته من معان سامية وحكم لطيفة لا تقلّ روعة وجمالاً عن قصيدته الأولى ، وهي همزية من البحر الخفيف .

يستهلّ ابن شبل قصيدته ببديهيّة أخرجها مخرج الحكم مفادها أنّ لكلّ شئ انتهاء حتى الحزن والسرور لهما نهاية ، وأيّ بقاء للأحياء بعد الموت ، ومهما كان الحزن وقعه شديد ، فلن يودي بصاحبه ، فهذا لبيد بن ربيعة الشاعر لم يقتله الحزن على أخيه أربد ولا الدموع كانت سلوى للخنساء لفقدانها أخاها صخراً ، فالحزن والبكاء مهما عظما يبليان وكذلك الفتى يبلى تمامًا كما يبلى ما في التراب ، غير أنّ الأحبّة إذا ما زالوا يتركون في النفس غصصًا لا يصبر عليها الأحياء :

غاية الحزن والسرور انقضاء * ما لحيّ من بعد ميّت بقاء
لا لبيد بأَرْبَدٍ مات حزنًا * وسلت صخرًا الفتى الخنساء
مثل ما في التراب يبلى الفتى فال * حزن يبلى من بعده والبكاء
غير أنّ الأموات زالوا وأبقوا * غصصًا لا يسيغها الأحياء

ثمّ يعرّض الشاعر بما يعانيه الإنسان من أخطار ومصائب في حياته ، فالمرء بين فكّين من ظفر وناب وأهوال للدنيا لا ترحم ، كأنّها أسود ضارية تنشب مخالبها بفرائسها ، وما الذي يدني المرء من منيّته ؟ إنّها أمنياته وصحّتُهُ السليمة وما يتغذى به . ففي الأماني قصر عمره ، لأنّه يسعى لتحقيقها فيلقى فيه حتفه ، فينقلب سروره إلى حزن شديد ، والصحّة طريق للسقم والمرض ، وبقاء الإنسان على هذه الأرض سبيل للموت ، ولكن أكثر ما يقتل المرء عند الشاعر هما الزاد والدواء اللّذان يتناولهما فدواؤنا أقتل داء لنفوسنا .

إنّما نحن بين ظفر وناب * من خطوب أسودهنّ ضراء
نتمنى وفي المنى قصر العمـ * ر فنغدو بما نسرّ نساء
صحّة المرء للسقام طريق * وطريق الفناء هذا البقاء
بالذي نغتذي نموت ونحيا * أقتل الداء للنفوس الدواء

وهذا المعنى تداولته الشعراء ، فقال أحدهم وهو من الأمثال :[16]

إذا بلّ من داء به ظنّ أنّه * نجا وبه الداء الذي هو قاتله

يعني الهرم . أمّا أن يكون الطعام سمًا يقتل متناوله ، فأجمل ما قال فيه أبو الطيّب المتنبّي في إحدى هجائيّاته ، وما أكثر ما ينطبق على أيّامنا هذه :

أرانب غير أنّهم ملوك * مفتحة عيونهم نيام
بأجسام يحرّ القتل فيها * وما أقرانها إلاّ الطعام

ولله درّ القائل :[17]

هل الدهر والأيّام إلاّ كما ترى * رزيّة مال أو فراق حبيب

وقول حميد بن ثور :[18]

أرى بصري قد خانني بعد قوّة * وحسبك داء أن تصحّ وتسلما

وقول النمر بن تولب :[19]

يسرّ الفتى طول السلامة جاهدًا * فكيف يرى طول السلامة يفعل

ويمضي شاعرنا ابن شبل في وصف الدنيا وما تلحقه بالأحياء من كوارث وآلام ، فهي للغدر خليل تستردّ منك بالغد ما منحته لك بالأمس القريب وأيّامها تجري فينا كالحلم لا

نعقل منه شيئًا ، وهذا الكون يجرّ الفساد على النفوس ولا تستطيع الانتقام منه ، ثمّ ينحو باللائمة على الآباء والأمّهات الذي أشقونا لأجل شهوة عابرة كانت سبب وجودنا ومعاناتنا ، فنحن لولا هذا الوجود لم نذق قهر الفقر والمرض ومرارة الموت ، فوجودنا هو بلاؤنا :

ما لقينا من غدر دنيا فلا كا * نت ولا كان أخذها والعطاء
راجع جودها عليها فمهما * يهب الصبح يستردّ المساء
ليت شعري حلما تمرّ بنا الأ * يّام أم ليس تعقل الأشياء
من فساد يجنيه للعالم الكو * ن فما للنفوس منه اتّقاء
قبّح الله لذّة لشقانا * نالها الأمّهات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقر * فإيجادنا علينا بلاء

وواضح أنّ الأبيات السابقة تعكس الحالة النفسيّة الصعبة التي كان عليها الشاعر والحزن والأسى اللّذين يسيطران على قلبه لفراقه أخًا حبيبًا عزيزًا ، فهو لا يرى للحياة طعمًا بعده ، فغدت كلماته في ذمّ الدنيا وفعلها متنفّسًا لكربه وراحة نفسيّة ممّا يعانيه . أمّا اتّهامه الآباء والأمّهات بشقاء الأبناء للذّة عارضة قد نالوها ، فهذا ليس من العدل . أليس الآباء والأمّهات قد خرجوا إلى الحياة باللّذّة نفسها ؟ وقد رأيناه في القصيدة الأولى يقرّ بالجبر وعدم اختيار الإنسان لوجوده أو للرحيل عن هذا العالم .

ويتساءل الشاعر لماذا هذا الأسى والعناء على حياة أشبه بالحلم لم تصحب الروح فيها الجسم إلاّ قليلاً ، وسرعان ما تفارقه غير مبالية بالصحبة ، ويعرض لنظريّة في الحكمة تقول : «لن يعود شئ إلاّ إذا بدأ» ، وهذه نظريّة عقليّة ، لن تكون نهاية إلاّ إذا حصلت

بداية ، هذا القول له علاقة بالنشور والحياة الثانية التي لها حجج في الأديان السماويّة، غير أنّه يشكّك في هذا الرجوع ، لأنّ جسد الميّت وما فيه من أعضاء يتعفّن ويبلى ولا يقوم دليلاً على العود في الحياة الاخرة ، وكيف تتجلّى لنا الحقائق في الأشياء المغيّبة عنّا في الوقت الذي تخفى جواهر الأشياء في ما نعاينه ونلمسه بحواسّنا . وما من شكّ أنّ الشاعر يعيش في كرب نفسيّ أفقده الرشد في القول ، إذ كيف يشكّك بالآخرة مَن عرف عنه رواية الحديث النبويّ الشريف ؟ لكن للشعراء الحكماء أحيانًا شطحات تنزلق بهم عن سمت الاعتدال حين يتعرّضون لأزمات نفسيّة كما نرى :

وقليلاً ما تصحب المهجة الجس * م ففيم الأسى وفيم العناء ؟؟

ولقد أيّد اللّه عقولاً * حجّة العود عندها الإبداء

غير دعوى قوم على الميّت شيئًا * أنكرته الجلود والأعضاء

وإذا كان في العيان خلاف * كيف في الغيب يستبين الخفاء

ثمّ ينتقل الشاعر إلى ذكر أخيه وتعداد صفاته الحميدة ، فيوم مصرعه كان ظلامًا لم يستبن فيه النور ، وأصبح الماء غصصًا والنسيم سمًا ، ودموعه الغزيرة أجّجت نار أنفاسه ، فغدا زفيره حسرات مضطرمة ، وأخذ يعتبر الحياة غدرًا (رواية ابن أبي أصيبعة : عذرا) ، بالرغم من أنّها حياة ترضي الأعداء ، وكيف يرجو شفاء ما في نفسه من حسرات وآلام الفراق ؟ وشفاؤه الوحيد هو أن يدسّ ويرقد في ثرى أخيه حينئذ تسكن نفسه ويستقرّ به المقام . ومن بين الخلال الطيّبة التي تحلّى بها أخوه الحزم والعزم وبهاء الطلعة والنور الذي يشعّ من وجهه . ثمّ يكشف لنا الشاعر عن كون أخيه صاحب لسان ماض ومنطق جزل قد زان وجهه الحياء ونفسه الإباء ، صاحب عطاء ونعيم ما فتئا أن زالا بسرعة مذهلة :

ما دهانا من يوم أحمد إلاّ * ظلمات وما استبان ضياء
يا أخي عاد بعدك الماء سمّا * وسمومًا ذاك النسيم الرخاء
والدموع الغزار عادت من الأ * نفاس نارا تثيرها الصعداء
وأعدّ الحياة غدرًا ولو كانت * حياة يرضى بها الأعداء
أين تلك الخلال والحزم أين الـ * عزم أين السناء أين البهاء
كيف ما كنت تنتضي من لسان * في مقام ما للمواضي انتضاء
أين ذاك الرواء والمنطق الجزل * وأين الحياء أين الإباء

والأبيات القادمة من أعذب ما قيل في شعر الرثاء لأنّها تخلو من الغلوّ وتمتاز بالحكمة والرزانة وتعكس مشاعر شقيق فقد شقيقه ، وأثبت هنا ما قاله عبد الخالق أحد المحقّقين لمعجم الأدباء :[20]

«ما أروع هذا الشعر وما أرزنه ، ليت الذين يتناولون هذا الضرب من القول يحذون حذو ابن يوسف ، ويتّخذونه قدوة ويسوقون القول على غراره ، والله لكأنّي أمرّ بقوله ، فأطرب للمعاني الأخّاذة بالعقول ، وأتمثّل الفلسفة الواضحة لا تلك التي يغرب فيها الفلاسفة ، وأخضع للحكمة يجلوها في أبهى لباسها ، وأذعن لتشبيهاته المحكمة وسيشاركني في هذا القول من يتفهّم شعره الذي مرّ ويتدبّره ، فإنّ المعاني السامية تنبجس من كلّ لفظ فيه» .

إن محا حسنك التراب فما للد * مع يومًا من صحن خدّيّ انمحاء
أو تبن لم يبن قديم ودادي * أو تمت لم يمت عليك الثناء
شطر نفسي دفنت والشطر باق * يتمنى ومن مناه الفناء

إن تكن قدّمته أيدي المنايا * فإلى السابقين تمضي البطاء

فإن كانت محاسن الشاعر قد محاها التراب ، فإنّ الدمع لم يمح من صحن خدّ الشاعر ، وإن بان الفقيد وأودى فإنّ ثناءه باق لا يزول . ويعزّى الشاعر نفسه بأنّه ماض إلى ما مضى إليه أخوه ، وإن كانت المنايا قد قدّمته قبله . غير أنّ البيت قبل الأخير قمّة في التعبير والحسن والبلاغة . ويختتم الشاعر قصيدة الرثاء هذه بأبيات كلّها في الحكمة ، فالموت يدرك كلّ حيّ وإن كانت الجوزاء مقرّه ﴿وَحَيْثُمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الموتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ وليس للأنبياء بهذا ما يميّزهم عن البشر العاديّين ، لأنّهم بنو موت ، وفي الموت يتساوى جميع البشر ، فميتة الحكيم تمامًا كميتة الغبيّ ، وهذا معنى موجود عند كثير من الشعراء . يقول أبو الطيّب :

يموت راعي الضأن في جهله * ميتة جالينوس في طبّه

والأرض لا تسرّ لموت شقيّ اشتدّت غوايته ولا السماء تبكي لموت تقيّ ملأت تقواه حياته ، وكثيرة هي الوجوه المضيئة التي أطفئت تحت الثرى . يقول أبو العلاء :

سر إن اسطعت في الهواء رويدًا * لا اختيالاً على رفات العباد

خفّف الوطء ما أظنّ أديم الأ * رض إلاّ من هذه الأجساد

ويضيف ابن شبل شخصيّات كثيرة أخرى مهيبة تشعّ على من حولها علمًا ونورًا كالبدور والشموس قد عفا عليها الزمن ، ولا غرابة في ذلك ، فالكواكب يستر نورها الغيم وتخفت ضياءها الأنواء المطرة ، هذه هي الحياة وهؤلاء هم الناس قادم يأتي وآخر ماض لن يعود ، وبهم تتحقّق المقولة : بداية حياة قوم نهاية حياة آخرين .

يدرك الموت كلّ حيّ ولو أخـ * فته عنه في برجها الجوزاء

ليت شعري وللبلا كلّ مخلو * ق بماذا تميّز الأنبياء
موت ذي الحكمة المفضّل بالنط * ق وذي العجمة البهيم سواء
لا غويّ لفقده تبسم الأر * ض ولا للتقيّ تبكي السماء
كم مصابيح أوجه أطفأتها * تحت أطباق تربها البيداء
كم بدور وكم شموس وكم أط * واد مجد أمست عليها العفاء
كم عفا عزّة الكواكب غيم * ثمّ أخفت ضياءها الأنواء
إنّما الناس قادم إثر ماض * بدء قوم للآخرين انتهاء

تمَّت قصيدتا الشاعر المطوّلتان الأولى في وصف الفلك والثانية في رثاء أخيه ، وهناك مقطّعات أخرى للشاعر وردت عند ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطبّاء وعند ياقوت الحمويّ في معجم الأدباء ، ووقعت منها أبيات مفردة في المصادر التي تحدّثت عن الشاعر . هذه المقطعات الشعريّة في أغراض شتّى أشهرها القصيدة التائيّة في الغزل والخمر قيلت في ذكر دير كوثا وما أمضى فيه الشاعر من لهو واحتساء للخمر ، وعدّتها أربعة عشر بيتًا من البحر البسيط :

يستهلّ الشاعر قصيدته بذكر حنينه وشوقه إلى الدير من كوثا[21]، ولا يقبل ملامة من عاذل بشأن هذا الحنين أو تلك الصبابات لأنّ الملامة لا تجدي ، ويدعو لتلك الأيّام والليالي والعهود التي قضاها بين حنايا الدير بالبقاء والدوام ، ويخبرنا أنّه قضى لبانات للشباب كثيرة وفرصًا اغتنمها في سبات الدهر ، غير أنّه بقيت لديه لبانات أخرى كثيرة تنزع به وتشدّه إلى تلك الديار . يقول :

بنا إلى الدير من كوثا صبابات * فلا تلمني فما تغني الملامات

لا تبعدن وإنْ طال الزمان بها * أيّام لهو عهدناها وليلات

فكم قضينا لبانات الشباب بها * غنما وكم بقيت عندي لبانات

ويهيب بنا الشاعر ، كاشفًا عن لذّته في الحياة ، أن ننعم بالعيش ونلذّ في الدنيا ما أمكنتنا الأيّام ، لأنّ العيش اختلاسات الإنسان من دهره ، والليالي منحة نستعيرها سرعان ما تنقضي عند استرداد الدنيا ما منحته لنا ، ثمّ يدعو نديمه إلى التوجّه ضحى إلى مجلس شراب يعقد بين الرياض والبساتين في منظر يشكّل الزهر بروجًا للشمس بينما هالات الضوء تقوم مقام الكؤوس . ولماذا هذا التبكير في احتساء العقار؟ إنّه الفوز بالشرب والارتواء قبل أن يدعو داعي الحمام ، وبماذا يتعلّل المرء في زمن باتت همومه تثقل صدور أحيائه ، فكأنهم في سبات ممّا يرزحون تحت ثقل الهموم والمصائب:

ما مكّنت دولة الأيّام مقبلة * فانعم ولذّ فإنّ العيش تارات

قبل ارتجاع الليالي فهي عارية * فإنّما منح الدنيا غرامات

قم فاجل في فلك البستان شمس ضحى * بروجها الزهر والجامات دارات

لعلّه إن دعا داعي الحمام بنا * نقضي وأنفسنا منها رويّات

بم التعلّل لولا الراح في زمن * أحياؤه في سبات الهمّ أموات

فهمّ الشاعر إذا أن يموت ريّان من الخمر ، وهذا يذكّرني ببيتي أبي محجن الثقفيّ :

إذا مت فادفنّي إلى ظلّ كرمة * تروّي عظامي بعد موتي عروقُها

ولا تدفنّني بالفلاة فإنّني * أخاف إذا ما متُّ أنْ لا أذوقها

وبيت أبي نواس الذي جعل الخمر دواء للهموم :

إذا خطرت فيك الهموم فداوها * بكأسك حتى لا تكون هموم

ثمّ ينتقل الشاعر إلى ذكر الساقية ، فأحسن الوصف وأجاد التشابيه ، بدأت الساقية عملها بإسداء التحيّة ، فقوبلت بمثلها وقد راعها ردُّ الشاربين لكون الخمر ممزوجة (وهم يريدونها صرفًا) وعندما صبّت الخمر من أباريقها خرج شعاع كالبرق لاح في وجهها المقابل وانعكس عليه ، هذا البريق أضاء ساقيها ، فظهرت الخلاخل جليّة كأنّها التبر وانعكس ذلك على وجوه الندمان كالإشارات :

بدت تحيّي فقابلنا تحيّتها * وقد عراها لخوف المزج روعات

مدّت أشعّة برق من أبارقها * على مقابلها منها شعاعات

فلاح من ساق ساقيها خلاخل من * تبر وفي أوجه الندمان شارات

هذا التناسق الجميل بين الألفاظ وهذا البديع من الجناس من مثل تحيّي – تحيّتها ، أشعّة – شعاعات ، برق – أبارقها ، ساق – ساقيها يضفي على الشعر جمالاً وروعة . وما أشبه هذا بقول أبي نواس أيضًا :

قامت بإبريقها واللّيل معتكر * فلاح من وجهها في البيت لألاء

فلو مزجت بها نورًا لمازجها * حتى تولّد أنوار وأضواء

وما فعلت الخمر وما عليها من حباب ؟ لقد طارت تلك الحبيبات ممّ اعترى الشاربين من صفو وصفاء ونشوة لتكتب سطرًا بل حكمة يعتزّ بها كلّ من يعاقر خمرًا ، هذا السطر هو :

قد وقّع الصفو سطرًا من فواقعها * «لا فارقت شاربَ الراح المسرّاتُ»

ويختتم الشاعر قصيدته بحكمة بل نصيحة يوجّهها لكلّ ذي فطنة مفادها : «ليس لك إلاّ

الذي بيدك»

خذ ما تعجّل واترك ما وعدت به * وكن لبيبًا فللتأخير آفات

وللسعادة أوقات مقدّرة * فيها السرور وللأحزان أوقات

والمقطّعة الثانية في الغزل تتكوّن من تسعة أبيات منظومة على البحر الطويل ، وهي من أرقّ الشعر وأعذبه ، فالشاعر لم يسل من عشقه ، ولا يريد فكاكًا من هذا الهوى بالرغم ممّا أحدثه فيه من جوى ، ولن يزجر قلبًا أضناه سعيًا وراء الأحبّة وسوف يزجره إن لم يمت قلبه شوقًا وعشقًا لمن أحبّ ، فهو والهوى يعيشان أليفين ، فإذا ما أضناه العشق فإنّ ذلك أشفى لنفسه ، وإنْ أفناه الوجد يجد ذلك أبقى له . إنّ هوى الشاعر ليس ماديًا وهو لا يجري وراء شهوة ، إنّه هوى عفيف وعشق عذريّ ليس إلاّ :

ليكفكمُ ما فيكم من جوى نلقى * فمهلاً بنا ورفقًا بنا رفقا

وحرمة وجدي لا سلوت هواكم * ولا رمت منه لا فكاكا ولا عتقا

سأزجر قلبا رام في الحبّ سلوة * وأهجره إن لم يمت بكمُ عشقا

صحبت الهوى يا صاح حتى ألفته * فأضناه لي أشفى وأفناه لي أبقى

والشاعر السعيد بهذا الحبّ المضني يعيش حالة العاشق الحقيقيّ ، فسلاح الصبر لا يحظى به ودموعه لا تنضب ولا تطفئ لواعج حبّه ، ويخشى على كبده الحرّى أن تُحرّق بنار الهوى وعلى عينيه أن تغرقا بفيض دمعه .

فلا الصبر موجود ولا الشوق بارح * ولا أدمعي تطفي لهيبي ولا ترقا

أخاف إذا ما اللّيل أرخى سدوله * على كبدي حرقا ومن مقلتي غرقا

هذه الحالة التي يصفها الشاعر دفعته إلى أن يسأل المحبوب السالي :

أيجمل أن أجزى من الوصل بالجفا * فينعم طرفي والفؤاد بكم يشقى

أحظي هذا أم كذا كلّ عاشق * يموت ولا يحيا ويظمى ولا يسقى

نعم تلك عادة العاشقين من الشعراء كما يقول واحد منهم :

لقد غرّدت في جنح ليل حمامة * على إلفها تبكي وإنّي لنائم

كذّبت وبيت اللّه لو كنت عاشقًا * لما سبقتني بالبكاء الحمائم

لم يبق للشاعر من أمل إلاّ الدهر لعلّه يجمع بين الحبيبين ، فكلّ شئ ممكن وما بعد العسر إلاّ اليسر :

سل الدهر علّ الدهر يجمع شملنا * فلم أر ذا حال على حاله يبقى

وقال يتشوّق إلى جبلي نعمان وريح الصَّبا التي تهبّ من تلقائهما ، لعلّه يجد في مهبّها تسرية لهمومه وترويحًا عن قلبه المعنّى ، وهي مقطّعة قصيرة تضمّ ثلاثة أبيات من البحر الطويل :

أيا جبلي نعمان باللّه خلّيا * نسيم الصبا يخلصْ إليّ نسيمها

أجد بردها أو تشف منّي حرارة * على كبد لم يبق إلاّ صميمها

فإنّ الصبا ريح إذا ما تنفّست * على كبد حرّاء قلّت همومها

وقال يصف الخمر في بيتين من البحر الكامل وهما مثال في دقّة الوصف وسموّ المعنى :

ثقلت زجاجات أتتنا فرّغا * حتى إذا ملئت بصرف الراح

خفّت فكادت أن تطير بما حوت * وكذا الجسوم تخفّ بالأرواح

أجل فالراح روح وفي ذلك يقول أبو نواس :

ما زلت أستلّ روح الدنّ في رفق * وأحتسي دمه من جوف مجروح
حتّى انثنيت ولي روحان في جسدي * والزقّ منطرح جسمًا بلا روح

وأنشد الباخرزيّ لابن شبل في المشيب وقد سمعه منه مباشرة ، وهي من مجزوء الكامل[22]:

قالوا المشيب فقلت صبح * قد تنفّس في غياهبْ
إنْ كان كافور التجارب * ذرّ في مسك الذوائبْ
فالليل أحسن ما يكو*ن إذا ترصّع بالكواكبْ

ويضيف الباخرزيّ : «كنايته عن الشعر الشائب بكافور التجارب من النوادر والغرائب ، وأختها غبار وقائع الدهر» . وكافور التجارب هو نوع من الكافور مجرّب يزيد في الشيب ويسرع فيه[23]. والمراد بعابرة «وأختها غبار وقائع الدهر» أي تشبيه الشيب بغبار وقائع الدهر – لأنّه فعل الزمن – أيضًا من النوادر والغرائب لما فيهما من جمال التشبيه .

وممّا أنشده الباخرزيّ لابن شبل بالسماع المباشر في قسمة الأرزاق وكونها مقدّرة وهي من الوافر :

وحتم قسمة الأرزاق فينا * وإنْ ضعف اليقين من القلوب
وكم من طالب رزقًا بعيدًا * أتاه الرزق من أمد قريب

وقال يصف الإنسان وتصرّف الخطوب به حتّى أنّه يعدم البصيرة ولا يفرّق بين الخطأ والصواب ، فإنْ أصاب فبفعل الحظّ لأنّ الأقدار تحيل صوابه خطأ . فكلّ إنسان

شخص آخر قد عدم الحسّ واستعار الوعي ، فهو مسيّر ويحسب أنّه مختار ، ويورد الأمور ولا يعرف كيف يكون الإصدار ، فإذا ما استرشد يكون ذلك بعد فوات الأوان ويكثر من ملامة نفسه ظنًا منه أنّها المخطئة ولا يعرف أنّ تصرّفه قدر مقدور ، وهذا كلّه من شديد البلاء . يقول من البحر الكامل :

وكأنّما الإنسان منّا غيره * متكوّن والحسّ منه معار
متصرّف وله القضاء مصرّف * ومسيّر وكأنّه مختار
طورًا تصوّبه الحظوظ وتارة * خطأ تحيل صوابه الأقدار
تعمى بصيرته ويبصر بعدما * لا يستردّ الفائتَ استبصار
وتراه يؤخذ قلبه من صدره * ويردّ فيه وقد جرى المقدار
فيظلّ يوسع بالملامة نفسه ندمًا إذا عبثت به الأفكار
لا يعرف الإفراط في إيراده * حتّى يبيّنه له الإصدار

وقال يتشبّث بالصبر ويحثّنا عليه ، إذا أثقلت قلوبنا الهموم التي تأتي على المهج ، ولكن ما بعد الضيق إلا الفرج ، فلم يبق إلا أن نروّح النفس ونفزع إلى تعليلها بالآمال : من البسيط

تلقّ بالصبر ضيف الهمّ حيث أتى * إنّ الهموم ضيوف أكلها المهج
فالخطب إنْ زاد يومًا فهو منتقص * والأمر إنْ ضاق فهو منفرج
فروّح النفس بالتعليل ترض به * واعلم إلى ساعة من ساعة فرج

إنّها أبيات قليلة ، لكنّها تحمل أسمى المعاني ، فتشبيه الهمّ بالضيف الثقيل هو في غاية الكمال ، فكلّنا نعرف ما يحدثه الثقلاء من كرب على نفوس المضيفين ، والبيتان

الأخيران يذكّراننا ببيت الطغرانيّ :

أعلّل النفس بالآمال أرقبها * ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

وفي مقطّعة أخرى قريبة من المعنى نفسه يقول ابن شبل في ضرورة الإبقاء على النفس لأنّ كلّ شيء يهون إنْ بقيت : من البسيط

تسلّ عن كلّ شيء بالحياة فقد * يهون بعد بقاء الجوهر العرضُ

يعوّض الله مالاً أنت متلفه * وما عن النفس إن أتلفتها عوض

ومن حكمه أيضاً :

قالوا القناعة عزّ والكفاف غنى * والذلّ والعار حرص المرء والطمع

صدقتم مَن رضاه سدَّ جوعتَه * إن لم يصبه فماذا منه يقتنع

من الممكن أن تكون القناعة والاكتفاء بالقليل غنى للنفس وأنّ الذلّ والعار سببهما الحرص والطمع ، ولكن هل رضى الإنسان وتسليمه بهذه الحقيقة يردّان عنه الجوع والفاقة دون أنْ يسبّب له هذا الرضى وتلك القناعة الأذى والألم ؟

وقال في وصف نفسه الأبيّة وعفّته : من الطويل

وفي اليأس إحدى الراحتين لذي الهوى * على أنّ إحدى الراحتين عذاب

أعفّ وبي وجد وأسلو وبي جوى * ولو ذاب منّي أعظم وإهاب

وآنف أن تصطاد قلبي كاعب * بلحظ وأن يروي صداي رضاب

فلا تنكروا عزّ الكريم علي الأذى * فحين تجوع الضاريات تهاب

في البيت الثاني يشير الشاعر إلى أنّه امرؤ كسائر الناس ، عنده الميل والتوق

الشديدان للشهوات وفي قلبه حرقة شديدة وولع مضطرم ، غير أنّ عفّته تقمع شهوته حتّى لو صهرت نار الحبّ جلده وعظامه . وهذا من أجمل المعاني وأجود التعابير ، وفي البيت الآخير مثل سائر .

بقيت لنا من شعر ابن شبل ثلاث مقطّعات ذكرها ياقوت وابن أبي أصيبعة كلّها في الحكمة ، وهناك بعض من المقطّعات اليسيرة لغيرهما ، لا بدّ من إثباتها جميعًا ، لأنّ فيها دلالة على براعته في النظم وقوّة حجّته واتّساع علمه وغنى تجربته .

الأولى في وصف علاقته مع الآخرين ، فهو يقسم الناس إلى ثلاث درجات : الأولى إذا كان الآخر أدنى منه درجة ، والثانية إذا كان هو أعلى درجة من الآخر ، والثالثة إذا كان الآخر مثيله في الدرجة والمكانة ، يقول من الطويل :

إذا كان دوني من بليت بجهله * أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
وإن كنت أدنى منه في الحلم والحجا * عرفت له حقّ التقدّم والفضل
وإنْ كان مثلي في الفطانة والحجا * أردت لنفسي أن أجلّ عن المثل

إنّ السلامة عند الشاعر ألا يبوح المرء بثلاثة أشياء : السرّ والمال والمذهب ، وإلا فسوف يلاقي العناء والمصاعب ، يقول من الكامل :

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة * سرّ ومال ، ما ستطعت ، ومذهب
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة * بمعكّر وبحاسد ومكذّب

وفي حفظ السرّ قيل شعر كثير وقد تفاخر به الشعراء . قال قيس بن الخطيم :

وإنْ ضيّع الإخوان سرًّا فإنّني * كتوم لأسرار العشير أمين
يكون له عندي إذا ما ضمنته * مكان بسوداء الفؤاد مكين

وقال مسكين الدارميّ :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم * على سرّ بعض غير أنّي جماعها
يظلّون شتّى في البلاد وسرّهم * إلى صخرة أعيا الرجالَ انصداعها
لكلّ امرئ منهم من القلب شعبة * وموضع نجوى لا يرام اطّلاعها[24]

وفي حفظ المال وصيانته من الحسد وعدم البوح به يكفينا قول الرسول الكريم : «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ! فإنّ كلّ ذي نعمة محسود»[25] . وأمّا حفظ المذهب ، فلا أعرفه إلا عند غلاة الشيعة والخوارج وهو ما يُسمّى بالتقيّة ولا أعرف إنْ كان الشاعر على ذلك أو أنّ قوله مجرّد نصيحة للآخرين .

وموضوع المقطّعة الأخيرة في كيفيّة الإبقاء على الصديق . يقول من الخفيف :

وعلى قدر عقله فاعتب المر * ء وحاذر برّا يصير عقوقا
كم صديق بالعتب صار عدوّا * وعدوّ بالحلم صار صديقًا

وقد انفرد الباخرزيّ بمقطّعتين لم تردا عند ياقوت وابن أبي أصيبعة ، الأولى في وصف نهر دجلة والزبازب (نوع من السفن) فيها وذلك في يوم موج : من الوافر

زبازبها على الأمواج تحكي * عقارب فوق حيّات تطير
تلوح كقطع ليل في صباح * كما لاحت على الطرس السطور

الظاهر أنّ هذه السفن السوداء التي طليت بالقار كانت مقدّماتها كرأس الحيّة .

والمقطّعة الثانية يخاطب الشاعر بها صديقًا له ، يدعى أبا يعلى ويتشوّق إليه ويذكر جوده وكرمه اللذين فاقا السحب الماطرة : من الطويل

أخطّ وأقلامي تسابق عبرتي * لأنّي عن جسمي كتبت إلى قلبي

وأشكو الذي ألقاه من وحشة النوى * وشخصك وقّيت الردى حاضر لبّي
فدتك أبا يعلى لعبد مهجةٌ * تقلّبها الأشواق جنبًا إلى جنب
تبسّم عن أثناء حضرتك العلى * وتغني بجدوى راحتيك عن السحب

وذكر الصفديّ أيضًا مقطّعتين أخريين الأولى من البحر الكامل ، وهي في الحكمة والثانية من البسيط وهي في وصف البخيل الذي يشبه عمله عمل دودة القزّ الذي هو نفعٌ لغيرها ، لا لها .

لا تظهرن لعادل أو عاذر * حاليك في السرّاء والضرّاء
فلرحمة المتوجّعين حزازة * في القلب مثل شماتة الأعداء
يفني البخيل بجمع المال مدّته * وللحوادث والأيّام ما يدع
كدودة القزّ ما تبنيه يهدمها * وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

وبعد ، فهذا ما وقع في يدي من شعر ابن شبل البغداديّ ، كما أبقت عليه المصادر التي ذكرته أو أرّخت له ، وليس من شكّ أنّ ما أوردناه في هذه الدراسة هو بقيّة ضئيلة من شعره ، فقد ذُكر أنّه صاحب ديوان ، ويبدو أنّ الأيّام عبثت في أغلب شعره فلم يصلنا . أرجو اللّه أنّي قد أسهمت في تعريف القارئ بشاعر طبيب حكيم ترك لنا ، على قلّتها ، آثارًا خالدة قد حازت على إعجابنا وتقديرنا .

الملاحظات الهامشيّة مع المصادر والمراجع :

1. يُنظر نسبه عند السمعانيّ ، عبد الكريم بن محمّد بن منصور التيميّ : **الأنساب** 397/1 . تقديم وتعليق : عبد اللّه عمر البارودي . بيروت : دار الجنان ، ط1 ، 1988 . يُنظر أيضًا في ترجمة الشاعر : **المستفاد من ذيل تاريخ بغداد** لابن النجّار البغداديّ 8/19 ؛ **الأعلام** للزركليّ 100/6 ؛ **معجم المؤلّفين** لعمر رضا كحّالة 25/4 ؛ **وفيات الأعيان** لابن خلّكان 393/4 في ترجمة ابن نقطة ؛ ابن تغري بردي : **النجوم الزاهرة** 11/5 .
2. ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم بن خليفة : **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء** 333 . تحقيق : نزار رضا . بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، 1965 .
3. الذهبيّ ، محمّد بن أحمد بن عثمان : **سير أعلام النبلاء** 430/18 . بيروت : مؤسّسة الرسالة ، ط1 ، 1984 .
4. الباخرزيّ ، عليّ بن الحسن بن عليّ : **دمية القصر وعصرة أهل العصر** 142/1 . تحقيق : عبد الفتّاح الحلو . القاهرة : دار الفكر العربيّ ، 1968 .
5. ياقوت الحمويّ : **معجم الأدباء** [نسخة مصوّرة بالأوفست في حيفا] .د. ت. 23/10 ؛ الكتبيّ ، محمّد بن شاكر : **فوات الوفيات** . تحقيق : إحسان عبّاس . بيروت : دار صادر ، 1974 .
6. الذهبيّ : سير أعلام النبلاء ، نفس المكان .
7. الصفديّ ، صلاح الدين خليل بن أيبك : **كتاب الوافي بالوفيات** 11/3 . باعتناء : س. ديدرينغ . ڤيسبادين : شتاينر ، ط2 ، 1974 .
8. الباخرزيّ ، نفس المصدر والمكان .
9. ياقوت الحمويّ : **معجم الأدباء** ، نفس المكان .
10. ابن أبي أصيبعة ، نفس المصدر والمكان ؛ ياقوت الحمويّ ، نفس المصدر والمكان .

11. ابن أبي أصيبعة ، نفس المصدر والمكان ؛ ياقوت الحمويّ ، نفس المصدر والمكان . وأضاف الكتبيّ بضع أبيات للبحتريّ من قصيدة تشبهها .

12. يُنظر ابن الجوزيّ ، عبد الرحمن بن عليّ : **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك** 214/16 . بيروت : دار الكتب العلميّة ، ط1 ، 1992 .

13. ورد صدر البيت عن ابن أبي أصيبعة : «وطوق في النجوم ، من الليالي» .

14. ورد صدر البيت عن ابن أبي أصيبعة : «وترصيع نجومك أم حبابُ» .

15. عند ابن أبي أصيبعة «تباري» .

16. يُنظر الثعالبيّ ، أبو منصور عبد الملك بن محمّد : **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر** 150/1 . تحقيق : محمّد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة : مطبعة السعادة ، ط2 ، 1956 .

17. هارون ، عبد السلام : **مجموعة المعاني** 30/1 . دار الجيل ، ط1 ، 1992 .

18. نفس المصدر والمكان .

19. نفس المصدر 29/1 .

20. نفس المصدر 43/10 .

21. كوثا بالمدّ والقصر اسم بلد . يُراجع ياقوت الحمويّ : **معجم البلدان** 487/4 . بيروت : دار صادر ، 1957 .

22. الباخرزيّ ، نفس المصدر 353/1 .

23. يُراجع ابن البيطار ، عبد الله بن أحمد الأندلسيّ : **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية** 296/3 . بيروت : دار الكتب العلميّة ، ط1 ، 1992 .

24. هارون ، عبد السلام : **مجموعة المعاني** 323/1 .

25. زغلول ، محمّد السعيد بن بسيوني : **موسوعة أطراف الحديث النبويّ الشريف** 508/1 . عالم التراث ، ط1 ، 1989 .